# فسطاط عمرو

لما فتح العرب مصر فى سنة ١٨ هـ كانت عاصمة البلاد - الإسكندرية - ففكر عمرو بن العاص فى أن يتخذها قاعدة للإدارة والجيش. إلا أن عمر ابن الخطاب لم يوافقه على ذلك، بل أمره بإنشاء مدينة أخرى لا يفصله عن المسلمين فيها ماء فى شتاء ولا صيف. وسواء أصحت أسطورة اليمامة المشهورة التى أفرخت فى مكان عمرو أم لم تصح فإنه بعودته من فتح الإسكندرية قصد ذلك المكان الفسيح الذى يقع شمال حصن بابليون الرومانى حيث عسكرت قوات العرب للمرة الأولى. وأمر بتأسيس الفسطاط ليجعلها قاعدة البلاد ودار الإمارة واختط عمرو الجامع العتيق، ثم اختطت القبائل العربية من حوله، وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل فى تنظيم خطة كل منها، هم: معاوية بن خديج التجيبى، وشريك بن سمى الغطيفى، وعمرو بن قحزم الخولانى، وجبريل بن ناشرة المعافرى[١]. ويخالف بطلر المؤرخ Butler هذا الرأى، فيقول: «والظاهر أن الذى قام بتنفيذ هذا الأمر إنما هم القبط لدرايتهم بفن العمارة التى كان يجهلها العرب[٢]. والواقع أن تخطيط الفسطاط فى ذلك العهد لم يكن من التعقيد بحيث يحتاج إلى معماريين مهرة.

(١) ابن دقماق: الانتصار - الجزء الأول، ص ٣٢٢.

(٢) بطلر: فتح العرب لمصر، ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد، ص ٢٩٤.

روى البلاذرى أن الزبير هو الذى اختط الفسطاط واتخذ فيها لنفسه داراً جعل فيها السلم الذى صعد منه إلى سور حصن بابليون، وبقى فيها ذلك السلم حتى احترق فى حريق الوزير شاور. ويصف ابن الحكم فى كتابه «فتوح مصر» خطط الفسطاط الأولى ويبين كثيراً من مواضع الدور والأمكنة التى بناها رؤساء الجند والزعماء. وقد استند المستشرقون إلى ما كتبه، فرسموا تخطيطات هامة فى غاية الدقة لطبوغرافية الفسطاط. وقد حدد المؤرخ المقريزى موقع الفسطاط فى خططه فقال:

«اعلم أن موقع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف بعضه اليوم بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الإسكندرية ويقيم فيها ما يشاء ثم يعود إلى دار الإمارة».

وتاريخ إنشاء الفسطاط مختلف فيه، فالبلاذرى يقول: إنه كان بعد فتح بابليون، فى حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندرية كما ذكرنا. ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الإسكندرية، وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة وعاصمة ذات شأن كبير، ثم نمت نمواً سريعًا بعد عام واحد من إنشائها. وقد قال المؤرخ أبو المحاسن أن عمرو بن العاص بنى الفسطاط عام ٢١ هـ بعد فتح الإسكندرية. ومما زاد فى مكانة الفسطاط أنه كانت تصل بابليون والبحر الأحمر عند القلزم (السويس) قناة قديمة اسمها أمينس تراجانوس (طرايانوس) وكانت تمر بمدينة بلبيس وبحيرة التمساح ولكنها أهملت فى وقت ما فأعاد حفرها عمرو بن العاص، وعادت إليها

أهميتها القديمة، فكانت ترسل بواسطتها الغلال إلى بلاد العرب وسهلت بذلك المواصلات بين خليفة المؤمنين ووالیه فی مصر.

**الجامع:**

ولما انتهى عمرو بن العاص من بناء عاصمته الجديدة أنشأ الجامع العتيق أقدم المساجد فی مصر وأول نواة للعمارة الإسلامية فيها[1] وقد اختار عمرو موضع المسجد فی المكان الذی كان فيه لواؤه وقد عرف باسم مسجد أهل الراية وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين كانوا يؤلفون قوات الجيش وتلتف حولهم كل قبيلة برايتها. وقد أورد المؤرخ ابن عبد الحكم فی تاريخه خطبة عمرو التی قالها فی يوم الجمعة وجاء فيها:

«حدثنی عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن الله سيفتح عليكم بعدی مصر فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لهم فيكم صهرًا وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وغضوا أبصاركم... وحدثنی عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندًا كثيفًا فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم فی رباط إلى يوم القيامة».

ولقد مرت أدوار كثيرة على (تاج الجوامع) كما أطلق عليه، ووصفه الرحالة الأندلسی ابن سعيد الذی زار مصر فی القرن الثالث عشر فقال:

«.. ثم دخلت فيه فعاينت جامعًا كبيرًا قديم البناء غير مزخرف ولا محتفل فی حصره التی تدور مع بعض حيطانه. وأبصرت العامة رجالاً ونساء

(١) محمود أحمد: جامع عمرو بن العاص بالفسطاط - عام ١٩٤٢.



obeikandl.com

قد جعلوه معـبرًا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه مـن باب ليقرب عليهم الطريق والبيـاعون يبـيعون فـيه أصناف المكسـرات والحلوى. والناس يأكلون منه فى أمكنة عديدة غير محتشـمين لجرى العادة عندهم. والعنكبوت قد عظم نسجه فى السقوف والأركان والحيطان والصبيان يلعبون فى صحنه، وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب فقراء العوام..».

ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبرتى فى تاريخه «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار»: وانتشر الموسيقـيون فى فنائه والقرداتية والراقصات فذهب بهاؤه القديم حـتى هجره هؤلاء أيضًا، ولو إقدام مـراد بك على إعادة تجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين.

وفى الجبـهة البحرية من الجـامع بنى عمرو دارًا له وأخرى غـربها لابنه عبـد الله عرفت بالدار الـصغرى تميـيزًا لهـا عن دار أبيه التى عـرفت «بالدار الكبرى». كذلك بـنى الزبير بن العوام دارًا بجوار دار عـبد الله. ولما رسخت أقـدام المسلمين فى مصـر اتسعـت وزادت عمـارة الفسطاط وفـاقت البصـرة والكوفة فى كثيـر من الوجوه وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثة أمـيال كما ذكر ابن حوقل[1]. وقال القضاعى عن مقدار عـمارتها أنه كان فى الفسطاط ٣٦٠٠٠ مسجد و٨٠٠٠ شارع مسلوك و١٧٠٠ حمام.

ومع أن فى هذا التقدير مبالغة ظاهرة فلا شك أن الفسطاط بلغت مكانة رفيعة من العمران، وارتقت فى عهـد خلفاء بنى أمية وصارت مقرًا لولاتهم. وفيها شيد عبد العزيز بن مروان أمير مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك دارًا

(١) ابن حـوقل رحالة بغـدادى زار الفسطاط فى النصف الأخـير من القـرن الرابع الهـجرى (أواخر القرن العاشر الميلادى).

للإمارة عرفت بدار عبـد العزيز كانت مطلة على النيل بلغ من سعتـها وكثرة ساكنيها أنهم كـانوا يصبون فيها أربعمـائة راوية ماء كل يوم. وقد علت هذه الدار قبة مذهبة شأن الأمويين فى تفخيم بناياتهم حتى تبز المبانى البيزنطية التى خلفها الروم وراءهم فى الأقطار التى انتزعها العرب منهم.

ولعل دار الإمارة هذه كانت أؤل بناية إسلامية كبيرة بمصر وصل إلينا نبأ زخرفتها، وقد مرت على الفسطاط بعد ذلك مراحل متعددة. فكانت كما ذكر ابن حوقل فى زمن من الأزمان نحو ثلث بغـداد ومقدارها نحو فرسخ، على غاية العمارة والطيبة ذات رحاب فى مجالها وأسواق عظام ومتاجر فخام ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومتنزهات خضرة.

ولما زار الفسطاط الرحالة ابن سـعيد كانت قد تغيـرت أحوالها وانقلبت محاسنها إلى أضدادها فقال فى وصفها:

«ولما أقبلت الفـسطاط أدبرت عنى المسرة وتأملـت أسوارًا مثلمـة سوداء وآفاقًا مـغبرة ودخلت من بابها وهو دون غلق إلى خـراب مغمور بمبان سـيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع قد بنيت بالطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقـة وحول أبوابها من التراب الأسود والأذبال مـا يقبض أنف النظيف ويغص طرف الظريف»[1].

(١) ابن سعيد: الاغتباط على حلى مدينة الفسطاط.

# طقس مدينة الفسطاط

كتب الطبيب المصرى «أبو الحسن على بن رضوان»[١] الذى عاش فى الفسطاط بين ٩٨٠ و١٠٦١م عن طقس الفسطاط نبذات كثيرة نقلها عنه المقريزى فى الخطط، فذكر أن «المدينة الكبرى اليوم بأرض مصر ذات أربعة أجزاء، الفسطاط والقاهرة والجزيرة (الروضة) والجيزة، وبعد هذه المدينة عن خط الاستواء ثلاثون درجة، والجبل المقطم فى شرقيها. وقد قال الأطباء أن أردأ المواضع ما كان الجبل فى شرقيه يعوق ريح الصبا عنه، وأعظم أجزائها هو الفسطاط، ويلى الفسطاط من الغرب النيل، وعلى شط النيل الغربى أشجار طوال وقصار، وأعظم أجزاء الفسطاط موضع فى غور، فإنه يعلوه من المشرق المقطم ومن الجنوب الشرف[٢]، ومن الشمال الموضع العالى من عمل فوق[٣]، أعنى الموقف، والعسكر وجامع ابن طولون. ومتى نظرت إلى الفسطاط من الشرق أو من مكان آخر عال، رأيت وضعها فى غور. وقد بيَّن

(١) ولد ابن رضوان بالجيزة زمن الدولة الفاطمية فى أواخر القرن العاشر وقرأ شيئًا من الطب وتقدم فى صناعته وقصده الطلبة وكتب عدة رسائل وتصانيف منها «رسالة فى دفع مضار الأبدان» وغيرها. واشتهر بمناظرته الطبيب العراقى المعروف بابن بطلان الذى جاء خصيصًا لمناقشة ابن رضوان بالقاهرة (١٠٤٩) فأقام فى مصر ثلاث سنوات حفلت بالمجادلات. انظر خمس رسائل لابن بطلان البغدادى ولابن رضوان المصرى، مطبوعات كلية الآداب (جامعة القاهرة)، ١٩٣٧.

(٢) الأرض المرتفعة وكانت جملة تلال ضخمة تقع جنوب الفسطاط، أقيم على جزء منها قصر الشمع.

(٣) عمل فوق أى الجزء العلوى من الفسطاط ويحيط بعمل أسفل فى نصف دائرة إلى الشمال الشرقى.

أبقراط أن المواضع المتسفلة أسخن من المواضع المرتفعة وأردأ هواء لاحتقان البخار فيها ولأن ما حولها من المواضع العالية يعوق تحليل الرياح لها. وأزقة الفسطاط وشوارعها ضيقة وأبنيتها عالية. وقد قال روفس[1] إذا ما دخلت مدينة فرأيتها ضيقة الأزقة مرتفعة البناء فاهرب منها، لأنها وبيئة. أراد أن البخار لا ينحل منها كما يبغى لضيق الأزقة وارتفاع البناء. وفى خلال الفسطاط مستوقدات عظيمة يصعد منها فى الهواء دخان مفرط وهى أيضًا كثيرة الغبار لسخانة أرضها حتى أنك ترى الهواء فى أيام الصيف كدرًا يأخذ بالنفس ويتسخ الثوب النظيف فى اليوم الواحد. فأما القرافة فأجود المواضع لأن المقطم يعوق بخار الفسطاط من المرور بها، وإذا هبت ريح الشمال مرَّت بأجزاء كثيرة من بخار الفسطاط، والقاهرة على الشرف فغيرت حاله، وظاهر أن المواضع المكشوفة فى هذه المدينة هى أصح هواء وكذلك حال المواضع المرتفعة، وأردأ موضع فى المدينة الكبرى هو كان فى الفسطاط حول الجامع العتيق إلى ما يلى النيل والسواحل، وأردأ ما فى المدينة الموضع الغائر من الفسطاط، ولذلك غلب على أهلها الجبن وقلة الكرم وأنه ليس أحد منهم يغيث ولا يضيف الغريب إلا فى النادر وصاروا من السعاية والاغتياب على أمر عظيم».

(١) روفس طبيب أغريقى مشهور نشأ فى أفسوس وازدهر اسمه فى الإسكندرية فى أثناء القرن الأول الميلادى.

## خطط الفسطاط

أذن عمرو للقبائل أن تختط حول الجامع وأمر معاوية بن خديج وآخرين ليشرفوا على هذا العمل، وكانت كل قبيلة منعزلة عن غيرها، وقد امتدت الخطط من النيل فى الغرب حتى عين الصيرة فى الشرق ومن جبل يشكر من الشمال حتى الشرق وجبل الرصد (المعروف باصطبل عنتر) فى الجنوب والتصقت الخطط القريبة من الجامع ومن قصر الشمع.

وأهم خطط الفسطاط فى أعوامها الأول:

١ - خطة أهل الراية: وكانت على مقربة من جامع عمرو وهم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة.

٢ - خطة مهرة: وكان فى الجنوب الشرقى من خطة أهل الراية وكان لهؤلاء خطة أخرى على جبل يشكر.

٣ - خطة تجيب: وتقع إلى الجنوب الشرقى من خطة مهرة.

٤ - خطط لخم: وكانت تحتل ثلاثة مواقع أولها فى الشمال الشرقى من الجامع.

٥ - خطة اللفيف: وكانت تلاصق خطة أهل الراية.

٦ - خطط أهل الظاهر: امتدت شرقى لخم فى الشمال الشرقى حتى موضع حائط مجرى العيون الحالى.

٧ - خطة وعلان: وتقع إلى جنوب قصر الشمع.



obeikandl.com

٨ - خطط الفرس: وقـد شغلت المكان القريب من جـبل الرصد ومن أهم قبـائلها بنو وائل وراشدة وكان خـليج بنى وائل متصلاً ببـركة الحبش كما كانت بساتينهم تحف بشواطئ البركة.

٩ - خطط خولان: ولها مكانان أولهـما جنوبى قصر الشمع وثانيـهما مكان الكوم المشرف على مصلى خولان.

١٠ - خطة المعافر: ومكانها على جبل الرصد المطل على بركة الحبش.

١١ - خطط الروم واليهود: وقد عرفت باسم الحمراء امتدت إلى المكان الذى يشغله اليـوم جامع ابن طولون وقد عرفت هذه القـبائل باسم بنى بنيـه وبنى الأزرق وبنى ربـيل، وكانـت خططهم تعـرف باسم الحمراء الـقصوى والحمـراء الوسطى والحمراء الدنيا ومكانهـا اليوم الخط الذى يقع فيه دير مارمينا بميدان الطيبى بمصر القديمة[1].

١٢ - خطط القبط: فى قصر الشمع.

وكانت هناك خطـط لعبد الرحـمن بن ملجم أعطيت له بأمر عـمر بن الخطاب ليعلم الناس القرآن وليتخذها مسكنًا.

وفى الفسطاط بنى عمرو أول حمام، وقيل أن الروم لما شاهدوه احتقروه وقالوا يصلح للفأر فسمى بحمام الفأر.

وهكذا بدت فسـطاط عمرو فى القـرن الهجرى الأول ولـكن بعد ذلك اتسع نطاقهـا ونمت واتسعت خططهـا وتلاصقت بما فيـها ثم نشأ عنهـا مدينة بلغت أوج الكمال حوالى القرن العاشر.

(١) فؤاد فرج: القاهرة جـ ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢١.

ويلاحظ أيضًا أن الفسطاط ارتقت حالها على أيام الأمويين، وبالرغم من بناء ضاحية العسكر فقد ظلت الفسطاط مركزًا للصنائع والحرف والتجارة وأقيمت بها الأسواق وأطلق عليها أسماء أرباب الحرفة أو الصنعة التى تباع فيها مصنوعاتهم، واختطت فيها الشوارع والحارات والدروب والأزقة والميادين وتتوسطها المساجد والدور.

***

## دور الفسطاط

كشفت حفائر الفسطاط عن دور كثيرة لها أفنية متوسطة الحجم وظهر منها أن الغرف فى كل دار كانت تحيط بالحوش فى نظام مماثل لما فى الدور الأخرى، اللهم إلا فى أحوال نادرة كانت جميع هذه الدور على نظام هندسى قائم على محورين يلتقيان فى وسط حوش وتختلف الغرف المحيطة به فى المقياس والنسب. وفى كل جنب من جوانب الحوش رواق ذو ثلاث فتحات تختلف فى الضيق والسعة. منها الفتحة الوسطى وهى أوسع من الفتحتين الجانبيتين، ويفصلها عنها كتفان مبنيان بالآجر. وفى سمت الرواق القاعة وتكتنفها من جانبيهما حجرتان صغيرتان منعزلتان عنها، وفى الجوانب الثلاثة الأخرى من الحوش فى محور كل جانب إيوانات تختلف فى الامتداد إلى الداخل فتتكون منها تارة قاعات وطوراً وهو الأغلب إيوانات صغيرة أو صفف ويلاحظ فى الرواق ذى الفتحات الثلاث الذى يمر منه الداخل إلى الغرف المهمة من السكن أنها شرقية وفى الغالب وفى بعض الأحيان غربية وكانوا يتجنبون الجنوب كما يتجنبون الشمال وكانت أهم مشتملات دار الفسطاط الأجزاء الآتية:

(أ) الحوش ويتوسط الدار وهو غير مسقوف ومقاسه فى الغالب بين أربعة وخمسة أمتار مكشوفًا ليتوفر للقاعة الكبيرة الظل والنسيم والنور.

(ب) الرواق والقاعة: هما المحلان المهمان فى الدار - ويلاحظ أن هذا النظام فى الدور لا يزال باقيًا حتى الآن فى مدن إسبانيا الجنوبية وفى شمال أفريقيا وفى عدة جهات من العالم الإسلامى. وقد وجد فى الأخيضر وفى سامرا بالعراق كما نراه بالقاهرة فى قصر ست الملك[1] قبل أن يضم إلى مارستان قلاوون[2].

(جـ) الإيوانات: وهى من المميزات المعمارية التى ترافق الحوش حيث يسهل التنقل فيها من محل إلى آخر على حسب الفصول وساعات النهار.

ومن المحتمل أن باب الدار لم يكن فى اتجاه محور من المحاور ويظهر أن الدركاة والدهليز الذى يؤدى إلى الباب كانت على شكل مخدع وإن كان ذلك لم يستنتج من الحفائر وإنما هو من القواعد العامة التى كانت متبعة فى المبانى الإسلامية فى كل العصور، والغرض منه حجز ما يجرى فى الحوش أو القاعة عن نظر من بالخارج.

---

(١) دار ست الملك بنت العزيز لدين الله نزار وأخت الحاكم بأمر الله. وسكن هذه الدار فى دولة الأيوبية مؤنسة بنت الملك العادل ابن بكر بن أيوب ثم الأمير فخر الدين جهاركس صاحب القيسارية بالقاهرة ثم سكنها الملك الأفضل قطب الدين حتى أخرجهم الملك المنصور قلاوون منها، ولسكن قطب الدين الأيوبى بها سميت الدار القطبية.

(٢) حفريات الفسطاط (ص ٩١).

ولم تكن منازل العـرب فى أول الأمر بمدينة الفـسطاط تحتـوى إلا على طابق واحد أرضى.

وقد قـيل أن أول من بنى غـرفة ذات طنف بالفـسطاط هو خارجـة بن حذافـة فبلغ عـمر بن الخطاب أمـرا، فكتب إلى عمـرو يقول: ادخل غـرفة خارجة وانصب فـيها سريرًا وأقم عليـه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصـير فإن اطلع من كوتهـا على عورات جيـرانه فاهدمهـا. ففعل ذلك عـمرو[1]. ولما وجدها غير ضارة أقرها فأخذت البـيوع تتسع كما أخذت عمارة المدينة تزدهر وتزداد حتى فاق مدينتى البصرة والكوفة.

وعلينا أن نقرأ بـتحفظ رواية الرحـالة الفارسى ناصر خـسرو الذى زار مصر فى أيام الفـاطميين، فقد ذكر أن بعض دور الفـسطاط كانت مكونة من أربع عشرة طبـقة. فلو فرضنا أن هذه الطبقات كـانت ذات ارتفاع قليل لكان ارتفاع البـيت يقرب من خـمسة وثـلاثين مترًا على أقل تقـدير. ولكن رواية ناصر خسرو قد تكون دليلاً على أن بيوت المدينة كانت لها طبقات.

كـما أنه قـد وصل إلينا أن لبـعض المنازل أسطحًـا واطئة جـدًا. ومن البديهى أن المدينة لا تكون أبنيتـها كلها على طراز واحد فتكون فـيها الفنادق والرباع. وكانوا يشـيدونها فى الجـهات المزدحمـة بالمتاجر على ضـفاف النيل وبجانـبها الدور من بيـنها ما يكون مـخصـصًا لأسـرة واحدة. ولقد أثـبتت حفـريات الفسطاط أن بعض الدور كـان لها حوشـان منفصـلان بحيث أمكن اعتبار كل حوش وسط دار قائمة بذاتها. ومن المحتمل أيضًا أن يكون أحدهما مخصصًا للرجال والآخر للحريم وإن كنا لم نوفق حتى الآن إلى معرفة الحالة

(١) ابن دقماق جـ٤ ص ٦.

الاجتماعية التى كان يعيش فيها النساء فى أوائل الفتح الإسلامى وفى العهدين العباسى والطولونى، وعلى كل حال فالمعروف أن الغرف لم تكن معدة لغرض مخصوص كما تطورت الحال فيما بعد فى بيوتنا الآن. فإن القاعة الكبيرة والرواق والأواوين بل والصحن، كل ذلك كان يستعمل لاستقبال الزائرين تبعًا لأوقات النهار والفصول.

وإذا استثنينا بعض الدور الإسلامية التى كشفها المرحوم على بهجت فى الفسطاط بين سنتى ١٩١٢ و١٩١٩ فإننا لا نعرف آثارًا أخرى نستدل منها على نظام الدور التى سكنها الولاة والحكام الأيوبيون والعباسيون. هذه المنازل التى كشفت فى الفسطاط من المحتمل جدًا أن نرجعها إلى عهد العباسيين والطولونيين. وقد بلغت الفسطاط فى ذلك الحين غاية الزهو والثراء. والواقع أن المقارنة بين أبنية الفسطاط وأبنية سامرا وجامع ابن طولون ثم أوجه الشبه بين الزخارف التى كانت تحلى بها بعض واجهات الدور فى الفسطاط وبالزخارف المنقوشة على بعض شواهد القبور فى القرنين الثالث والرابع الهجرى، كل ذلك يرجح أن معظم أبنية الفسطاط كانت من عصر الدولتين العباسية والطولونية.

وقد وقفنا من الخطط المقريزية على وصف القصر الذى شيده أحمد بن طولون وابنه خمارويه فى القطائع بعد أن خربت ومحيت آثارها من الوجود (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م) على يد محمد بن سليمان الكاتب (الخطط جـ٢ ص١٠٦)، ولا حاجة لنا بهذا الوصف العام الذى أورده المقريزى عن هذا القصر. فهذا الوصف لا يعنينا ألبتة على معرفة نظام هندسته وتوزيع غرفه الداخلية أو أجزائه الرئيسية وارتفاعها وسعتها. .إلخ مما يساعدنا على إثبات

نقط واضحة فى هذا الموضوع، والخيال أيضًا لا يصل بنا إلى شىء حاسم.

ولسنا نعلم الشىء الكثير عن الدار فى العهد الأخشيدى القصير الأجل. وقد ذكر المقريزى ذلك البستان الذى أمر بغرسه محمد بن طغج الأخشيد ومساه المختار. وبنى فيه قصرًا وأماكن له ولغلمانه وكان يفاخر به أهل العراق.

***

## الشرطة فى الفسطاط

لما فتح عمرو مصر، وضع نظام الشرطة بالفسطاط وكان الوالى هو الذى يعين صاحب الشرطة وفى حالات نادرة جدًا كان الخليفة هو الذى يعينه وصاحب الشرطة هذا كان بمثابة نائب للوالى، يؤم الناس فى الصلاة إذا مرض الوالى، ويحكم الولاية إذا خرج الوالى من مقر ولايته، فنرى خارجة ابن حذافة صاحب الشرطة يؤم الناس فى الصلاة أثناء مرض عمرو بن العاص. وكان بالفسطاط دار للشرطة.

ولما تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م أنشئت فيها دار للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا، كما أنشئت دار الشرطة السفلى، وانقسمت الشرطة بذلك إلى قسمين:

(أ) الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط.

(ب) الشرطة العليا ومقرها العسكر.

وكان أصحاب الشرطة يهتمون بنشر الفضيلة والمحافظة على الآداب العامة، ففى ولاية مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، نراه يتشدد فى نشر الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد، ثم التفت إلى أحمد بن مزاحم أرخوز صاحب شرطته وحرضه على أمور أمره بها، فشدد أرخوز عند ذلك ومنع النساء من الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات والمقابر وسجن المؤنثين والنوائح(١).

وفى أيام الطولونيين وجدت شرطتان: الفوقانية والسفلانية، أى الشرطة العليا والشرطة السفلى. وكانت الأولى تختص بالنظر فى أحوال الطبقة العليا من القادة والعظماء والعلماء، أما الثانية فكانت خاصة بإقامة العدل وتوطيد الأمن بين العامة وأوساط الناس(٢). وظلت الشرطة فى المناصب الهامة فى أيام الأخشيديين ولكن أمر تعيينهم وعزلهم كان يصدر عن والى مصر لا عن الخليفة العباسى. وكان مقر الشرطة الطولونية فى المكان الذى شيد فيه ابن طولون مسجده الجامع.

ولما قدم محمد بن طغج الأخشيد إلى مصر واستقر له الأمر عين على الشرطة سعيد بن عثمان غلام الأحول فى رمضان سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م. وكان سعيد هذا صاحب الشرطة على عهد أحمد بن كيغلغ ولكنه لحق بابن طغج عند قدومه فكافأه على ذلك بتعيينه فى هذا المنصب. ومن أصحاب

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١ ص ٣٣٧. انظر أيضًا الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف: مصر فى فجر الإسلام ص ٢٣ - ٢٦.

(٢) أحمد ممدوح حمدى: الشرطة فى مصر الإسلامية ومعاقل التأديب بها، مقال فى مجلة المجلة.

الشرطة على عـهد خلفاء الأخشـيد بدر غلام يانس وقد وليـها سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م.

ولما فتح جوهر الصقلى مصر (٩٦٩) نقل الشرطة العيا من العسكر إلى القـاهرة. وذكر ابن دقـماق أن صـاحب الشرطة توفى فى اليـوم نفسـه الذى وصل فيه جوهر إلى مصر، فأسند عمله إلى جبر، وبقيت دار الشرطة السلى بالفسطاط وتقلدها «عروبة بن إبراهيم» و«مشبل المعوضى».

كانت الإضاءة تعم طرق الفسطاط وحاراتهـا كما هو الحال فى القاهرة، ففى عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م أمر الخليفـة العزيز بالله بإضاءة المصابيح على الدور وفى الأسواق، وفى ذى الحجة سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م أمر الحاكم بأمر الله أن توقـد القناديل فى سـائر البلد على جـميع الحـوانيت وأبواب الدور والمحـال والسكك، فنفـذت أوامره، وكـان ينزل الحـاكم بأمـر الله كل ليلة إلى المدينة متـفقدًا شـوارعها وأخطاطهـا وأزقتهـا، فتبارى الـسكان فى الإضاءة وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة(١).

ولم تكن الإضاءة مقصورة على الدور والشوارع والحوانيت، بل إنه ألزم بها المشاة، فكل إنسان يحمل فانوسًا يضىء له، ومنهـا الصغير للفرد والكبير يسير به الضوى أمام سادته، هذا عدا المشاعل التى تتقدم المواكب.

وشاع اسـتعمـال الفوانيس التى تحـمل على البغال مـع الفانوسيـة أمام وخلف ركب الملوك فى الليل، وكان أوّل من حـمل الشمع معه علـى البغال فى الليل محمـد بن طغج الأخشيد فكانت الشـمعة تحمل على مـؤخر البغل وفراش يركب أمامها يلتفت إليها بين آونة وأخرى يصلحها أو يضيئها(٢).

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ١٠٨.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ١ ص ٤١٦.

وكان فى الفسطاط فى عـهد والى مصر عبد العزيز بن مـروان، جماعة إطفاء مكونة من خمسمائة عامل لمكافحة حريق طارئ فى البلد أو هدم، وفى أيام الفواطم كان يوضع زير مملوء بالماء أمام كل حانـوت مخافة حدوث حريق فى مكان فيطفأ بسرعة.

وفى عـام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م أمر الوزير المأمـون الواليين بمصر والقـاهرة بإحضار رؤسـاء السقايين وأخذ التعهـدات عليهم باستعدادهم للحـضور كلما دعت الحاجة إليهم ليلاً ونهارًا، ورتب طائفـة من العتالين كى يبيتوا على باب كل معونة (مركز الشرطة) مع عشرة من الفعلة ومعهم الطوارق والقرب مملوءة بالماء، على أن تتكفل الحكومة بنفقاتهم.

***

## آبار الفسطاط

استـمد سـكان الفسطاط مـياه الشـرب بوساطة السـقائين الذين كـانوا يجلبونها من النهر بالقراب وكـانت تحفظ فى أزيار من الفخار أو فى صهاريج صغـيرة مـعدة فى الصـخر تحت المنازل ثم تسـحب منها بالدلاء كلـما دعت الحاجة.

وقد حفرت آبـار كثيرة فى الفسطاط وكانت تمد بمائهـا الأحواض العليا فى الدور. وقد نقرت هذه الآبار فى الصخر وتجاوزته إلى الطبقة الرملية حيث توجد المياه الغائرة، ولكن هذه المياه كان يكثر فيها الملح كلما بعدت الآبار عن النيل، ولذلك كان يكثر فيها الملح كلما بعدت الآبار عن النيل، ولذلك كانت مياهها غـير صالحة للشرب وكانت تستعـمل فقط فى غسيل الملابس والأوانى والنافورات، وكانت هذه المياه ترفع إلى الأحـواض العالية بالدور إما بوساطة

السواقى أو بالآلات الرافعة اليدوية ثم تتتجه من الأحواض إلى أنحاء الدور المختلفة فى أنابيب من الفخار عثر على كثير من بقاياها فى أعقاب حفريات الفسطاط.

وكان فى فناء بعض الدور نافورة أو حوض مربع مبنى بالطوب الأحمر، وقد تحيط به الخضرة، كما أنه كان فى بعض المنازل أحواض لغسل الأيدى.

***

## خليج أمير المؤمنين

ومما ساعد على ازدهار الفسطاط وانتعاش حركتها التجارية، إعادة حفر القناة القديمة التى كانت توصل النيل بالبحر الأحمر وكانت تعرف باسم خليج تراجان على زمن الرومان. وكان يخرج من النيل شمال بابليون وفى أثناء الفتح العربى كان مبدؤه بشارع الخليج المصرى فى حذاء مدخل شارع بنى أزرق بأرض جنينة لاظ الواقعة فى الجهة الشمالية الغربية من جامع السيدة زينب.

ولما كان هذا الخليج قد طمس فى كثير من أجزائه عند فتح العرب لمصر، فقد استأذن عمرو الخليفة عمر فى إعادة شقه فسمح له وسمى بخليج أمير المؤمنين وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز محملة بالغلال والعروض وأنواع الطعام، وظل يؤدى أعمالاً جليلة حتى أهمل فى زمن عمر بن عبد العزيز سنة ٧٢٣م وفى أيام من جاءوا بعده من الولاة وبعد إنشاء القاهرة عرف باسم خليج القاهرة فالخليج الحاكمى ثم سمى خليج اللؤلؤة نسبة إلى قصر اللؤلؤة الذى كان قائمًا فى العصر الفاطمى فى موقع مدرسة الفرير

بالخرنفش وسمى أيضًا خليج مصر أو الخليج المصرى، وفى سنة ١٨٩٧ / ١٨٩٩ ردم الجزء الواقع من الخليج داخل مدينة القاهرة وحل محله شارع الخليج المصرى الذى سمى بشارع بورسعيد عام ١٩٥٧.

❊ ❊ ❊

## ميناء الفسطاط

وعلى مر الأيام أصبحت ميناء الفسطاط أعظم موانىء مصر، منها تصدر وترد المتاجر من أقاصى البلاد إلى شماليها وقد دهش ابن سعيد المغربى من نشاط الميناء، فقال: «أما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى فإنه فوق ما يوصف، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها تجهز إلى القاهرة وسائر البلاد.

وليس بخاف أيضًا أن أول دار للصناعة أنشئت بمصر الإسلامية كان تلك التى أنشئت بالفسطاط وكان مقرها جزيرة الروضة على ساحلها الجنوبى الشرقى. أنشئت عام ٦٧٣ لبناء السفن حتى أيام ابن طولون ثم أحرقتها عام ٩٣٤ سفن أسطول محمد بن طغج الأخشيدى، ثم نقلها من الجزيرة إلى الفسطاط مكان بستان الطواشى. ويقال أن جزءًا منها هو الذى نقل إلى الفسطاط ويؤيد ذلك ما ذكره بعض المؤرخين بقولهم أن كان هناك داران للصناعة فى عهد الفواطم إحداهما بالروضة والأخرى بالفسطاط، ولما طرح البحر فى المسافة بين الفسطاط ودير النحاس، وتكونت أراض جديدة نقلت دار الصناعة إلى ساحل مصر تجاه دار النحاس (دير النحاس) حيث استقرت فترة طويلة، ثم نقلت إلى ساحل بولاق فى أيام محمد على.

❊ ❊ ❊